الجذور التاريخية للتكوين السكاني في لبنان

د. داود قندولي (*)

مقدمة:

لبنان[1]، البلد الصغير في مساحته، يقع منذ أن وجد، في قلب القارات القديمة الثلاث. فهو بحكم موقعه على مفارق الحضارات والأديان والشعوب جذب إليه الطامعين بموقعه وبثراوته الطبيعية والإنسانية، فغدا ممراً لهم ومستقراً لبعضهم، ولكثرة الشعوب والقوميات التي توطّنت في ربوعه وتفاعلت مع سكانه، أصبح مختبراً طليعياً للعيش المشترك، ووجهاً حضارياً متقدماً بين الأمم. وقدره يكمن في نشر رسالة إنسانية ملحّة في العالم القريب والبعيد، تدعو الى التعايش والتفاهم بين الأفراد والشعوب، في أجواء من التنوّع والحرية والديمقراطية والسلام.

حاولت في هذا البحث التعرض لسير الشعوب والأقوام التي أصبحت في أصل لبنان وثوابته منذ أكثر من ألف سنة خلت، منطلقاً من القول أنّ فكرة مصير الأمم والشعوب ليست فيما تسعى إليه في الزمن الحاضر فحسب بل فيما أعدّت له منذ القدم. مشيراً الى الخصائص والميزات في حياتها، ومبرزاً لأهم الأحداث المروية المعبرة التي جرت في الأيام الغابرة، مستشهداً بثقاة الباحثين، ومستعيناً بأقوالهم وتعليلاتهم في سبيل توضيح ما قصدت قوله. إنّ للبنانين أصولاً تاريخية، وحضارية، وتراثية، ودينية، متقاربة ومتمايزة في آنٍ معاً. منهم ساميون بمعظمهم، وجذور آرامية مسيحية مشرقية، وعربية إسلامية، ويشتركون جميعاً في اللغة والتراث والتقاليد، إتخذوا من موقع لبنان ومنعته ملاذاً لأمنهم وحماية لحرياتهم، إنتهى بهم المطاف الى الاستقرار النهائي

(*) أمين سر في مجلس النواب اللبناني ـ أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

(١) يستعمل البلاذري مصطلح لبنان، وجبل لبنان للدلالة على المناطق التي سيطر عليها المردة ـ الجراجمة. ـ البلاذري (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجّد، مكتبة النهضة المصرية، ودار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨، ص ١٦٤ـ ١٦٥.

فيه والتلاقي تحت سمائه، فجمعتهم أواصر القرابة والرحم ووحدة الحياة والمصير.

الإطار الجغرافي:

أطلق إسم لبنان على المنطقة الجبلية «السلسلة الغربية من جبال لبنان» المشرفة على البحر الأبيض المتوسط. هذا البلد المتنوّع والمعقّد في تركيبته الجغرافية والبشرية، هو من طليعة البلدان التي عرفت عبر تاريخها الطويل حركة مد وجزر مستمرّة في تكوينها السكاني.

ويعتبر تركيب لبنان الجغرافي نادراً بالنسبة للدول المجاورة له، فبالقرب من البحر تستقيم سلسلة جبال موازية للشاطئ، يصل إرتفاع قممها في الشمال الى حوالي ثلاثة آلاف متر، وعند إجتياز هذه السلسلة ينبسط في الشرق سهل البقاع بعرض لا يتجاوز ١٥ كلم، ليصطدم بسلسلة جبال لبنان الشرقية، شبه القاحلة وصعبة الإجتياز.

هذا التكوين الجغرافي أمّن لساكني سلسلة جبال لبنان الغربية، سهولة الاتصال عبر الشواطئ المتعرّجة، والتغذية من السهول الساحلية الضيقة ومن سهل البقاع في الداخل، والإستئثار بمناعة طبيعية في الجبال الصعبة المسالك، التي كانت كسائر جبال المتوسط، ملجأً لكل مضطهد أو هارب من جور السلطات المتعاقبة. ولقد تميّزت جبال لبنان بإجتذابها الهاربين واللاجئين إليها، نظراً الى ما تؤمنه من ثنائية الإختباء والإنفتاح في آنٍ معاً.

نتيجة لهذه الأسباب ولغيرها، كان لبنان أحد أقدم البلدان التي عرفت تنوعاً معقداً من أصوله السكانية: من شعوب ما قبل التاريخ الى الشعوب الإسيانية، الى الكنعانية (الفينيقيين)، الى الشعوب التي غزته أو حكمته في مراحل من تاريخه، كالمصريين (الفراعنة) والحثيين، ودول ما بين النهرين، واليونان، والرومان، والبيزنطيين، الى الأرمن، والفرس، ثمّ العرب والقبائل ما قبل الإسلام، من أيطوريين، الى الأنباط الذين أخذت مدينة النبطية إسمها منهم[٢]...

نواة التكوين السكاني:

يعتقد المؤرخون أنّ الموارنة يؤلفون كنيسة مسيحية، إنفصلت عن الكنسية الانطاكية، عن طريق جماعة من الرهبان الخلقيدونيي[٣] العقيدة الذين أنشؤوا لهم ديراً قرب نهر العاصي في سورية، على إسم مار مارون، الذي توفي سنة ٤١٠هـ[٤].

ذاق جماعة بيت مارون أقسى العذابات على مدى قرون من الزمن بسبب مواقفهم الدينية، فدكّت أديارهم وأحرقت، وقتل رهبانهم وتشرّد مريدوهم وصودرت أملاكهم، فهجروا موطنهم، وخرجوا على دفعات في القرنين السادس والسابع الميلاديين، سالكين الطريق المحازي لنهر العاصي، وحطّوا أولاً في المناطق الشمالية لجبال لبنان، حيث وجدوا هنال مسيحيين آخرين سبقوهم. وإنضمت الى صفوفهم لاحقاً أرتال من المهجرين وتكاثرت أعدادهم مع قدوم المردة ـ الجراجمة، فامتلأت جبال لبنان بهم، وشكّلوا بانصهارهم التام «أمة معلقة على الصخور فوق الوديان»، وعاشوا في كنف جباله المنيعة حياة شبه عزلة على الجوار.

ويقول الدكتور إدمون الرباط: «إنّ المورانة

(٢) إلياس القطّار: لبنان في القرون الوسطى، بيروت ٢٠٠٣، ص ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨.
(٣) الذين يعتقدون بأنّ للمسيح طبيعة واحدة بعد التجسّد لأنّ له طبيعتان: بشرية وإلهية.
(٤) يوسف الدبس: من تاريخ سورية الدنيوي والديني، بيروت ١٨٩٩، ص ٣٦٦.

قد شكلوا في لبنان جماعة إثنية مؤلفة من مزيج إختلط فيه سكان الجبل الذين إعتنقوا المسيحية مع أتباع القديس مارون الذين هاجروا من سورية الشمالية مع بقايا الجراجمة أو المردة المسيحيين الذين يعودون في أصولهم الى جبال أمانوس .. كما إنضمّ الى هذه المجموعة مسيحيو سائر الطوائف الذين ما إنفكوا عبر التاريخ... عن التدفق من سوريا، فاستقروا في قراهم وتبنّوا طقوسهم وعاداتهم»[٥].

إتخذ البطاركة الموارنة الأوائل من دير مارون في كفرحي في قضاء البترون مركزاً بطريركياً. ثمّ إنتقل هذا المركز الى يانوح، بجوار بلدة العاقورة. كما إتخذوا مراكز بطريركية أخرى أحياناً... وكان جزء من المسيحيين قاطنين في جبل لبنان الشمالي، ويفصلهم عن جبل لبنان الجنوبي والوسط، نهر بيروت، وكانت المناطق بين نهري بيروت والكلب تعرف بـ «الخارجة» وبين نهري الكلب وإبراهيم بـ «الداخلة»[٦].

بداية التنوّع السكاني
إبّان الفتح العربي ١٣هـ/ ٦٣٤م:

رافقت الجيوش العربية الى بلاد الشام سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، أعداد هائلة من عرب اليمن، بعضهم فضّل العيش في المناطق اللبنانية المختلفة، وتمتّعوا بنفوذ سياسي كبير، أدّى الى إرتفاع مستواهم الإجتماعي والاقتصادي[٧].

ففي المدن الساحلية تفاعل الوافدون العرب مع الأقباط[٨] المقيمين، واستعانوا بهم في معركة ذات الصوراي سنة ٣٤هـ/ ٦٥٥م، بهدف فتح قبرص. ولعلّ هذه الحادثة تعزز الإعتقاد بإنتشار الأقباط في مدن الساحل اللبناني، وإنّ حضورهم كان ولا لايزال لافتاً حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، خصوصاً في مدينة بيروت، حيث شاركوا في تشييع الإمام الأوزاعي مع فئات أخرى من سكانها[٩]. وفي هذا الإطار يقول الدكتور منير إسماعيل: «إن كان بعض المؤرخين قد بالغ في أهمية هذا الدور، ليسقطوا عليه اسهامات أخرى قام بها الأقباط، في المجالين الديني والثقافي، جاء بعض منها مخالفاً لنص الشريعة خصوصاً فيما يتعلق بإشراكهم في غنائم الحرب»[١٠].

ولا شكّ أنّ العرب، كانوا بحاجة الى تحصين ذلك الشريط الذي تمثلمه المدن الساحلية، فحشدوا فيها من العناصر التي استسلمت في البلدان المفتوحة، في وقت كانوا

---

(٥) إدمون ربّاط: التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ترجمة حسن قبيسي، أعدّه للنشر جورج كتورة، منشورات الجامعة اللبنانية ٢٠٠٢، ج ١ ص ٢٦٨.

(٦) كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، منشورات كارافان، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٤ ـ ٤٥. ويرجع الصليبي أن مصطلح كسروان مستمدّ من لفظة «كسرى» إبان احتلال الفرس للبلاد في أثناء حروبهم مع الروم، زمن هرقل.

(٧) عبد الأمير حسين دكسن: الخلافة الأموية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٣٧، ص ١٤١.

(٨) كلمة «قبط» مشتقّة من الإسم اللاتيني لمصر «إجبتوس» «Aegyptos»، وترجع الكلمة لـ «قبط» أو «قفط» بن مصرايم بن حام بن نوح، ويقضي الإدعاء بأنّ قبط أو قفط، هو أول من سكن مصر، وفي العهد الروماني سكن بعض الأقباط في مدن الساحل الشامي.

(٩) عمر تدمري: الفتح الإسلامي وسياسة الإسكان لساحل دمشق (لبنان)، عمّان ١٩٨٥، ص ٢١. والإمام الاوزاعي، هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد، وعرف بالاوزاعي نسبة لقبيلته «أوزاع» التي استوطنت بعلبك زمن الحكم الأموي. وقد إنتقل الإمام الى بيروت ورابط فيها. توفي سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م، ودفن في بلدة حبتوس، قرب بيروت، وعرفت فيما بعد بمحلة الاوزاعي. ـ علي عبد فتوني: تاريخ لبنان الطائفي، دار الفارابي، بيروت ٢٠١٣، ص ١٤.

(١٠) منير اسماعيل: كتابة تاريخ لبنان الى أين (التكوين السكاني والاجتماعي)، جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية في بيروت، ص ١٠٣.

منصرفين فيه الى القتال على الجبهات المعتددة، وقد حدا ذلك بوالي دمشق الى الإستعانة بالفرس، الذي أبدوا ولاءً للحكم الجديد، وتحمسوا للقتال. ويقول الدكتور ابراهيم بيضون: «إذا سلّمنا جدلاً بصحة إنتمائهم، وأنهم ليسوا عرباً حتى أتباعهم في العراق، كما يعتقد بعض المؤرخين، وهذا ما استبعدناه لعدم وجود أدلة عليه ويؤكد انتماءهم الفارسي، بعد إختبار الخليفة في دمشق لصدقية هذا الولاء، حين قتل رجل من الروم عامل الخراج في طرابلس، وحاول الفرار الى القسطنطينية، فظفر به إثنان من فرس بعلبك كانا يقومان بمهمة اسطلاعية ضد البيزنطيين على متن مركبين وجاءا به الى الخليفة في دمشق، الذي أمر بقتله، وكافأهما بمنح الفرس خمس مدينة طرابلس[١١]، مستنداً الى رواية إبن عساكر[١٢].

هذا، وإستمرّت الهجرة العربية الى بلاد الشام. «ففي دمشق سكنت أعداد هائلة من قبيلة قيس، الى جانب قبائل غسان وحمير وقريش، أمّا قبائل لخم وعاملة وجذام فاستوطنوا الجبل بين دمشق وصور، ويدعى جبل عامل»[١٣]، وسكنت قبيلة أوزاع اليمنية في بعلبك.

ظلّ الساحل اللبناني لفترة طويلة في أساس السياسة الدفاعية للخلافة الأموية في دمشق، وظلّ هذا الحيّز من الاهتمام حتى دخول الصليبيين الى المنطقة، فدفعهم هذا التنبه لإجراء التعديلات على أسلوب التمركز القبلي، حين منحوا القبائل الوافدة الى الساحل، اقطاعات لتشجيعهم على الإستقرار، مما جعل المدن الساحلية تعج بسكانها العرب، مقابل خروج الكثيرين من سكانها الأوائل، ومن إنهاء النفوذ البيزنطي[١٤]. فسرعان ما إتخذت هذه المدن طابعها العربي الإسلامي كمراكز دفاعية في المقام الأول، وإنتهت معالم شخصيتها القديمة الى الزوال، ولم تحدث هذه الحركة تأثيراً في المواقع الخلفية، كما يعتقد كمال الصليبي[١٥]، بل إنها تحولت الى مراكز للمرابطة الدينية والعسكرية شأن الحاميات القائمة في ثغور الساحل، فنتج عن ذلك الانتشار السريع للإسلام في هذه المناطق. حيث» وفدت الى لبنان قبائل تتحدر من أصل يمني، وإستقرّت في وادٍ منه وجبلين، وهي عاملة التي استوطنت جبل عامل والجليل الأعلى، و«تيم الله بن ثعلبة» التي نزلت في وادي التيم، و«بهراء» التي اتخذت مقراً لها في حنوب الشام، حيث لا تزال تعرف هذه المناطق بإسمائهما حتى اليوم، بإستثناء «بهراء» التي تعرف الآن بجبل العلويين»[١٦].

ومع إزدياد **خطر البيزنطيين مهددي** الثغور الساحلية بصورة مباشرة، عمدت الدولة في دمشق الى سحب حملتها العسكرية من جزيرة رودس، وأمرتها بالمرابطة في بيروت وطرابلس وغيرها من المدن الساحلية، تفادياً لأي هجوم بيزنطي يفاجئ هذه المدن[١٧]. كما

(١١) ابراهيم بيضون: لبنان في تاريخه وتراثه، بيروت ١٩٩٣، ص ١٦٠ ـ ١٦١.
(١٢) إبن عساكر: تاريخ دمشق الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجّد، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩. جـ ١٦ ص ٧٨.
(١٣) عمر تدمري: لبنان من الفتح العربي حتى السقوط بيد الأمويين، دراسات في تارسخ الساحل، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(١٤) ابراهيم بيضون: لبنان في تاريخه وتراثه، ص ١٥٨.
(١٥) كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ٤٧.
(١٦) كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤.
(١٧) عمر تدمري: ثغور بحر الشام ودورها الجهادي في العصر الأموي، عمّان ١٩٨٧، ص ١٥.

إتخذت إجراءات سريعة لإعادة ترتيب الوضع في «لبنان» الجبل والساحل معاً. بهدف تأمين شريط أمني يصل بين الإثنين، فأسكنوا في قراه موالين للدولة وأجلوا عنها المسيحيين، بينما شهد الساحل وافدين جدد، كانت طليعتها القبيلة الشهيرة «تنّوخ» بقيادة الأمير منذر بن مالك الذي رافقه أخوه الأمير أرسلان، وآخرون من أبناء أخوتهما، كانوا قد إلتقوا الخليفة في دمشق، قبل مسيرتهم الى تلال بيروت والإستقرار فيها[١٨].

لقد نجح التنوخيون في ضبط الامور على الساحل اللبناني، كما في الجبل المتاخم له. وتابعوا بجدارة هذه المهمة طوال فترات الإضطراب التي شهدتها مناطق الساحل، وهذا ما أغنى الدولة في دمشق عن إرسال الجيوش النظامية لتأمين الإستقرار في المنطقة.

ومع فرض الدولة الفاطمية سلطتها على بلاد الشام سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، عمدت الى تطعيم الفسيفساء اللبنانية بعناصر جديدة موالية لها، من المغاربة، والأتراك، والسلاجقة. ومن العائلات المغربية المهمة في تاريخ لبنان آل «نكد»، الذين كان لهم دور بارز في دير القمر في مطلع العهد الشهابي، وآل «عبد الواحد» ولا يزالون في طرابلس حتى اليوم.

في غمرة هذه المتغيرات السياسية، يجب أن لا يغيب عن بالنا تأثير الحركات المناوئة للسلطة المركزية، في تطورات الحركة الاستيطانية للمنطقة، ومنها حركة «القرامطة» التي كان لها دور كبير في مناطق الشوف ووادي التيم، حيث لاقت تأييداً من سكان هاتين المنطقتين، وأحدثت تمزّقاً في سياسة المنطقة، وإنحسار نفوذ الدولة الفاطمية، وقيام دولة «بني عمّار» في طرابلس، ودولة «بني عقيل» في صور، وعلى الرغم من تشيّع هاتين الدولتين، إضافة الى جبل عامل[١٩]، فقد كانوا على غير وفاق مع الدولة الفاطمية، وتركت أحدهما (دولة بني عمّار)، تأثيراً بارزاً في المنطقة وتحديداً في مجال الثقافة، وقد إمتدّت حدود هذه الدولة من جبلة شمالاً الى جونية جنوباً.

الى جانب هذه القبائل العربية، سكن اليهود في معظم المدن اللبنانية، وتصالحوا على الجزية، وإمتهنوا الصياغة والصيرفة والدباغة والجهبذة. أمّا المهن الأخرى من الأطباء وصيادلة وكتبة ومترجمين، فكان معظمهم من المسيحيين الى جانب فلاحة الأرض[٢٠]. كما إزداد عدد الموالي في «لبنان» نتيجة إدخالهم في الجيوش العربية، حيث رابط قسم كبير منهم في هذه البلاد، وعيّن حكّام منهم لإدارتها[٢١]. وأهم الطوائف التي ضمتها المناطق اللبنانية في التكوين السكاني، حيث كان التمازج السكاني والإستيطاني قد تفاعل بين المدن والقرى (اليعاقبة ـ السريان ـ الموارنة ـ

(١٨) ابراهيم بيضون: لبنان في تاريخه وتراثه، ص ١٧٢.

(١٩) بدأ التشيّع يغزو جبل عامل، بفضل تأثير الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، الذي تشير بعض المصادر الى تعريجه على جبل عامل بسبب إضطهاد معاوية والي دمشق آنذاك له، وإقامته بين ميس الجبل والصرفند، فالجبل أسلم بفضل وجود عناصر عربية فيه وأهمها قبيلة عاملة اليمنية، وعرف شيعة لبنان بإسم (المتاولة).
محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤. ـ محمد كرد علي: خطط الشام، دمشق ١٩٢٥، جـ ٦ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٠.

(٢٠) المقدسي البشاري (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع مدينة ليدن المحروسة، بريل ١٩٠٤، الطبعة الثالثة، ص ١٦٧ ـ ١٧١.

(٢١) زامباور (مستشرق): معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، أخرجه زكي محمد حسن، سنة ١٩٥١، جـ ١ ص ٤٣ ـ ٥٠.

الملكانية واليعقوبية) ومن المسلمين (السنّة ـ الشيعة ـ الإسماعلية ـ النصيرية والدروز). أمّا القاعدة الأساسية فقد تمثلت بالعنصر العربي[٢٢].

وفي سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، إنتقل بنو حمدان من حلب وسكنوا الساحل، وأعطتهم الدولة الفاطمية مدينة صور وما حولها. ونزل العقيليون في بعلبك مع زعيمهم ظالم بن موهوب العقيلي وقصدوا بعدها صيدا، ومكثوا عند بني حميد[٢٣]، وقد سماهم إبن سمعان بني سيبان الزحليين[٢٤]، وكذلك سماهم عبد الحسين الصوري.

وفي مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إنتشر بنو كلاب في عكّار والهرمل وبعلبك والبقاع وجبل عامل ومدينة صور، كما أقام فيها «فتح القلعي» قادماً مع عسكره من قلعة حلب[٢٥]. ونزل مدينة جبيل جماعة من «بني الصوفي» آتين من دمشق، وكوّنوا نفوذهم في جبيل وحولها، وقاموا بعمارة برجها الحربي وحصنوه، بإشراف القاضي الملقّب «المكين» ودليلاً على ذلك، اللوحة التي عثر عليها داخل البرج نقش عليها أسطراً بالخط الكوفي العادي، وحروف بارزة يعود تاريخها الى سنة ٤٧٥هـ/ ١٠٨٣م، حيث تمكّن الفاطميون في هذه السنة من إنتزاع مدينة جبيل من بني عمّار (أمراء طرابلس)، وعينوا عليها حاكماً موالياً لهم، يدعى «ثقة الملك خلف بن الحسين الصوفي»[٢٦] وحالياً «بنو الصوفي» موجودون في طرابلس.

لقد حاول ناصر خسرو جاهداً، في إحصاء عدد سكان المناطق اللبنانية، حيث ذكر أنّه في سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م، كان عدد سكّان طرابلس مئة ألف، وعدد عسكرها ستة آلاف جندي. وعدد سكان صور ستّين ألفاً، وحدّد عدد عسكر بيروت بـ «٢٠٠٠ جندي»[٢٧]. إلّا أنّنا لا يمكن تبنّي هذه الاحصاءات لكونها غير دقيقة، ولم تصدر عن مصدر آخر، ولا يصح البناء عليها.

التوزيع السكاني في زمن الحكم الصليبي:

خضعت المناطق اللبنانية، على مدى قرنين من الزمن (٤٩١ ـ ٦٩٠هـ/ ١٠٩٨ ـ ١٢٩١م)، لإحتلال الصليبيين الذين جاؤوا من أوروبا في حملات عسكرية متتالية، فمنطقة الشمال خضعت لكونتية طرابلس، التي إمتدّ نفوذها على طول الساحل (من طرطوس حتّى المعاملتين). أمّا جبل لبنان الجنوبي (الشوف) وجبل عامل فقد خضعتا لمملكة الاتين في القدس، فيما سيطر الأتابكة في دمشق على التلال المحيطة بمدينة بيروت ومنطقة وادي التيم والبقاع[٢٨]. وتوزّع السكان المحليون في

(٢٢) عبد الحسين الصوري: ديوانه، تحقيق مكي جاسم وشاكر هادي شكر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد ١٩٨٠، ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٢٣) إبن القلانسي (أبو يعلي حمزة): ذيل تاريخ دمشق، نشره أمدروز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨، ص ٥١.

(٢٤) إبن سمعان (أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعان): الأنساب، تحقيق محمد عواضة، طبعة صيدا أباز ١٩٧٩، جـ ٦ ص ٣٠.

(٢٥) الإنطاكي (يحيى بن سعيد): صلة تاريخ أوتيغا (تاريخه)، تحقيق عمر تدمري، طبعة جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٩، ص ٣٢٦.

(٢٦) عمر تدمري: لبنان من السيادة الفاطمية حتّى السقوط بيد الصليبيين، القسم الحضاري، دار الإيمان، طرابلس، لبنان ١٩٩٤، ص ٢٠٥ـ ٢٠٦.

(٢٧) ناصر خسرو: سفر نامة، نقلها الى العربية يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٣، ص ٤٧.

مجموعات عدة، إختلفت إحداها عن الأخرى، لجهة الإنتماء الديني والمذهبي:

- سكن النساطرة في طرابلس.
- الملكيون في البترون والكورة
- إستقرّ اليعاقبة بكثافة في جونية[٢٩].

- أمّا **الموارنة**[٣٠]، الذين كانوا يشكلون أكبر مجموعة سكانية في كونتية طرابلس، فقد إنتشروا في بلاد جبيل، وفي منطقة البترون، صعوداً نحو منطقتي بشرّي وإهدن، مختلطين بطوائف مسيحية أخرى (الملكيين واليعاقبة).

- **النصيرية**[٣١]، سكنت في منطقة عكّار، وجبال لبنان الوسطى، والشمالية، متجاورة مع الموارنة في الجبال والجرود.

- **الشيعة**، بدأ يتقلص وجودهم في منطقة طرابلس، بعد زوال إمارة «بني عمار»، فنزحت جماعات كثيرة منهم باتجاه جبال كسروان، إضافة الى وجودهم بشكل كثيف في جبل عامل.

- **السنة**، سكنت في بعض المدن الساحلية (بيروت وصيدا) وفي المدن الداخلية (بعلبك وبعض مناطق البقاع).

- أمّا **الموحدون الدروز** فقد أقاموا في جبل لبنان وجواره (الشوف)، ومنطقة وادي التيم.

وأضف الى هؤلاء جميعاً جماعات قليلة من الأرمن واليهود، وبعض القبائل البدوية والتركمانية المنتشرة في أنحاء مختلفة من المناطق اللبنانية[٣٢].

تمثلت أولى ردّات الفعل على الحملات الصليبية باتجاه الشرق، بوصول جماعات إسلامية، عربية، وكردية، وتركية، وشركسية، الى بلاد الشام، ومنها المناطق اللبنانية، للإسهام في طرد الصليبيين، ومن أبرز هذه الجماعات «بنو معن» الذين نزلوا جبل الشوف في أعقاب الحملة الصليبية الأولى، حيث كان لهم دور بارز في التصدي لها، كما قدم الشهابيون من حوران، وإستقروا في وادي التيم[٣٣].

وقد عرفت المناطق الريفية نزوحاً كثيفاً باتجاه المدن، نتيجة تردي الأوضاع الزراعية، فعملوا في حقل الخدمات التجارية التي إزدهرت في فترة وجود الكيانات الصليبية في الشرق، رافق ذلك إنكفاء المسلمين عن الساحل ومدنه الى الداخل. ما أحدث فراغاً سكانياً في المدن الساحلية، ملأه المسيحيون المحليون، الذين لعب بعضهم دور الوسيط التجاري بين الصليبيين وسكان الداخل الشامي، فاستقرّ المسيحيون المحليون في: طرابلس والبترون وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور[٣٤].

التحولات السياسية والإجتماعية والسكانية إبّان الحكم المملوكي:

بعد سقوط مملكة اللاتين في القدس، وجلاء

(٢٨) أحمد حطيط: سكان لبنان في زمن الحروب الصليبية، دار المحجة البيضاء، الطبعة الاولى، بيروت ٢٠١٠، ص ٤٩.
(٢٩) الإدريسي (أبو عبد الله محمد): نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، بيروت ١٩٨٩، م١ ص ٣٧٢.
(٣٠) قدّر وليم الصوري عدد موارنة كونتية طرابلس بأربعين ألفاً. وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، تعريب سهيل زكار، بيروت ١٩٩٠.
(٣١) عن نشأة النصيرية وتطور أوضاعها في بلاد الشام. راجع جبال العلويين وجبل عامل، لخضر محمد نبها، دار الأمان، الرباط، ومنشورات ضفاف، الطبعة الاولى، بيروت ٢٠١٣.
(٣٢) أحمد حطيط: سكان لبنان في زمن الحروب الصليبية، ص ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١.
(٣٣) منير إسماعيل: كتابة التاريخ الى أين، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣٤) أحمد حطيط: تاريخ لبنان الوسيط، دار البحار، بيروت ١٩٨٦، ص ١٠٦.

الصليبيين من الشرق، عمدت المملوكية الناشئة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، الى حماية السواحل من الهجمات الأرتدادية من جهة الغرب. فأحدثت تغييراً سكانياً سريعاً في المدن الساحلية، وأسكنت فيها قبائل عربية من أبرزها «بنو بحتر» إضافة الى قبائل تركمانية، لمراقبة السواحل من جهة، والفصل بين الهجمات البحرية الصليبية والمسيحيين المحليين من جهة أخرى، كما إستقدمت بني عساف من الكورة للقيام بحراسة المنطقة الساحلية «من ظاهر بيروت الى حدود طرابلس»[٣٥]، وعهدت الى أمراء بني سيفا (وهم من الأكراد، أمر حماية المناطق اللبنانية الشمالية (طرابلس وعكار)، فأحكموا سيطرتهم على المنطقة لفترة طويلة[٣٦]، فنتج عن ذلك حضور أسلامي كثيف في مدن الساحل اللبناني وانحسار الوجود المسيحي، عموماً، والماروني خصوصاً عن السواحل نحو المناطق الجبلية، حيث إلتحق بهم بعض الصليبيين (الفرنجة) ممن لم تتوفر لهم سبل الخروج من البلاد فإحتموا بالمسيحيين في جبال لبنان الشمالية، وإعتنقوا المارونية بعد استيطانهم الجبل. وآثروا البقاء في الشرق[٣٧]. وفي ذلك يقول المؤرخ فيليب حتّي: «ليس غريباً، مشاهدة عدد من الناس من ذوي العيون الزرق، والشعر الأشقر، في مدينة إهدن في شمال لبنان، وهناك أسر أغلبها نصرانية، مثل عائلة كرم، وفرنجية، وصليبي، قد حفظت تقاليد تحدرها إلى أسلافٍ فرنج، ويقال أنّ أسماء بعض الأسر الأخرى، كصوايا مأخوذة من سافوا Savoie، والدويهي من «ده دوي» De Douai»[٣٨].

إلّا أنّ أهم تغيير سكاني حصل بين عامي (١٢٩٢ ـ ١٣٠٥م)، بعد تعرّض منطقة كسروان وجوارها، لسلسلة من الحملات العسكرية المملوكية، عرفت بـ «الحملات الكسروانية»، ضد سكان تلك المنطقة لأسباب نحن بالغنى عن عرضها، إلّا أن المهم من هذه الحملات، أنها أفرغت منطقة كسروان وبعض مناطق المتن الشمالي من سكانها، وأحدثت تغييرات ديمغرافية واسعة، وكان لها الأثر الكبير على التحوّلات السكانية على مستوى المناطق اللبنانية بشكل عام وعلى كسروان بشكل خاص[٣٩].

يرى بعض المؤرخين اللبنانيين، أنّ هذه الحملات العسكرية جرّدت لمعاقبة «العصاة» من الموارنة وبعض الدروز، بينما المؤرخ فيليب حتّي،يرى بأنّ هذه الحملات العسكرية استهدفت الاسماعيلية والنصيرية والشيعة، أمّا كمال الصليبي[٤٠]، فهو أول من رجّح من المؤرخين اللبنانيين «شيعية» المستهدفين بالحملات العسكرية على كسروان، فيما حرص محمد علي مكّي[٤١]، على إقامة البرهان على ما رجّحه الصليبي.

(٣٥) كمال الصليبي وآخرون: لبنان في تاريخه وتراثه (فصل جبل لبنان في العهد المماليك)، بيروت ١٩٩٣، ص ٢٢١.
(٣٦) أحمد حطيط: تاريخ لبنان الوسيط، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣٧) أ.ن يولياك: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، نقله عن الإنكليزية عاطف كرم، بيروت ١٩٤٨، ص ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٥.
(٣٨) نقلاً عن المستشرق رستالبير. ـ فيليب حتّي: تاريخ العرب المطوّل، ترجمة إدوار جرجي وجبرائيل جبّور، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٦٥، جـ ٢ص ٧٩٢.
(٣٩) أحمد حطيط: قضايا من تاريخ المماليك (السياسي والحضاري)، دار الفرات، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٣، ص ١٤٩.
(٤٠) كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤.
(٤١) محمد علي مكي: لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٧، ص ٢١٨ ـ ٢٣٨.

لقد أسفرت تلك الحملات عن تبدلات سياسية وإجتماعية وسكانية، فبإخراجهم النصيرية من مناطق كسروان، وبمنعهم إنتشار الشيعة والدروز شمالاً، تكون الدولة المملوكية، قد أسهمت في تعزيز مكانة المسيحيين في كسروان ومحيطها، فقد إنتقل الشيعة الى البقاع وجزين وجبل عامل، وعاد بعض منهم بعد حين الى قراهم في جرود كسروان، وبخاصة الى المرتفعات الوعرة منها.

أمّا الدروز فنزحوا الى المناطق الجبلية في الشوف، بينما توجهت جماعة من النصيرية شمالاً لتستقر في عكار، ونقل حاكم طرابلس الأمير إسندمر عدداً منهم واستخدمهم «بطرابلس بجمامكية وجراية، تدفع لهم من خزانة الدولة»[٤٢].

لقد إستفاد بعض المسيحيين من الجبل من المستجدات الحاصلة في المنطقة، وخصوصاً كسروان التي خلت من سكانها، فانتقلت جماعات منهم الى المنطقة وأقاموا فيها دون إعتراض من السلطة الحاكمة[٤٣]، ومع بداية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، بدأ الموارنة يتمركزون بكثافة في مناطق كسروان وجبيل[٤٤].

إنّ كل هذه المعطيات التاريخية هي التي وضعت أسس التكوين السكاني في لبنان ساحلاً وجبلاً وسهلاً. وقد أدّت سياسة الانفتاح الى إمتزاج الوافدين من القبائل العربية وغيرهم، بالسكان الأصليين في معظم المناطق اللبنانية، وأصبح التعايش بينهم من الثوابت، ومن هنا يجب أن نسعى جميعاً للخلاص من واقع هذا الوطن المتأرجح بين الحياة والموت. الذي بكاد أن يقتلع كلّما هبّت ريح وجنّت عاصفة، لنعبر الى وطن موحد، تقترن ثوابته بالحرية والتسامح والإنفتاح. وطن تتجذر فيه الديمقراطية، وتزول منه الطائفية والمذهبية الى غير رجعة، وطن لجميع أبنائه تجمعهم كلمة سواء.

المصادر والمراجع:

١ ـ ابن السمعان، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعان: الأنساب، تحقيق محمد عواضة، طبعة صيدا أباز، بيروت ١٩٧٩ .

٢ ـ إبن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي: تاريخ دمشق الكبير، تحقيق صلاح الدين المنجّد، دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩.

٣ ـ إبن القلانسي، أبو يعلي حمزة: ذيل تاريخ دمشق، نشره أمدروز، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٠٨.

٤ ـ إبراهيم بيضون: لبنان في تاريخه وتراثه، بيروت ١٩٩٣.

٥ ـ أحمد حطيط: ـ تاريخ لبنان الوسيط، دار البحار، بيروت ١٩٨٦.

ـ قضايا من تاريخ المماليك (السياسي والحضاري)، دار الفرات، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٣.

ـ سكان لبنان في زمن الحروب الصليبية، دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٠.

(٤٢) الجامكية والجراية لهم نفس المعنى هي الرواتب. ـ أحمد حطيط: قضايا من تاريخ المماليك، ص ١٦١

(٤٣) A. Ismail: Le Liban, Histoire d'un people, Beyrouth,1965, P 75

(٤٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس خوري اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت ١٩٤٨، ص ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٥.

٦ ـ إدمون ربّاط: التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري، ترجمة حسن قبيسي، أعدّه للنشر جورج كتّورة، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ٢٠٠٢.
٧ ـ الإدريسي، أبو عبد الله محمد: نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، بيروت ١٩٨٩.
٨ ـ إلياس القطّار: لبنان في القرون الوسطى، بيروت ٢٠٠٣ .
٩ ـ الإنطاكي، يحيى بن سعيد: صلة تاريخ أوتيغا (تاريخه)، تحقيق عمر تدمري، طبعة جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٨٩.
١٠ـ البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، نشره صلاح الدين المنجّد، مكتبة النهضة المصرية، ودار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨.
١١ـ خضر محمد نبها: جبال العلويين وجبل عامل، دار الأمان، الرباط، المغرب، ومنشورات ضفاف، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٣.
١٢ـ الخوري ناصر الجميّل: لبنان من الوثنية الى المسيحية، بيروت ٢٠٠٠.
١٣ـ زامباور (مستشرق): معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، أخرجه زكي محمد حسن، سنة ١٩٥١ .
١٤ـ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس خوري اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت ١٩٤٨.
١٥ـ عبد الأمير حسين دكسن: الخلافة الأموية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٣٧.
١٦ـ عبد الحسين الصوري: ديوانه، تحقيق مكي السيد حاسم وشاكر هادي شكر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد ١٩٨٠.
١٧ـ علي عبد فتوني: تاريخ لبنان الطائفي، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠١٣.
١٨ـ عمر تدمري: ـ الفتح الاسلامي وسياسة الإسكان لساحل دمشق (لبنان)، عمّان ١٩٨٥.
ـ ثغور بحر الشام ودورها الجهادي في العصر الأموي، عمّان ١٩٨٧.
ـ لبنان من الفتح الاسلامي حتى السقوط بيد الأمويين، طبعة جروس برس، طرابلس، لبنان ١٩٩٠.
ـ لبنان من السيادة الفاطمية حتّى السقوط بيد الصليبيين، القسم الثاني، التاريخ الحضاري، دار الإيمان، طرابلس، لبنان ١٩٩٤،
١٩ ـ فيليب حتّي: تاريخ العرب المطوّل، ترجمه إدوار جرجي وجبرائيل جبّور، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٦٥.
٢٠ ـ كمال الصليبي وآخرون: لبنان في تاريخه وتراثه (فصل جبل لبنان في عهد المماليك)، بيروت ١٩٩٣.
٢١ ـ كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، منشورات كارافان، بيروت ١٩٧٩.
٢٢ ـ محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل، بيروت، بدون تاريخ.
٢٣ ـ محمد علي مكي: لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني، دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٩.
٢٤ ـ محمد كرد علي: خطط الشام، دمشق ١٩٢٥.
٢٥ ـ المقدسي البشاري، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع مدينة ليدن المحروسة ١٩٠٤.
٢٦ ـ منير إسماعيل: كتابة تاريخ لبنان الى أين (التكوين السكاني والاجتماعي)، جمعية متخرجي جمعية المقاصد الاسلامية في بيروت.

٢٧ ـ ناصر خسرو: سفر نامه، نقلها الى العربية يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٣.

٢٨ ـ وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، تعريب سهيل زكار، بيروت ١٩٩٠.

٢٩ ـ يوسف الدبس: من تاريخ سورية الدنيوي والديني، بيروت ١٨٩٩.

٣٠ ـ أ. ن. يولياك: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، بيروت ١٩٤٩.

٣١ ـ A. Ismail: Le Liban, d'un people, Beyrouth 1965.